العولمة منبر الهوية[1]

أ. **منصوري عبد الحق** (جامعة وهران Algeria)

تمهيد

عندما يُطرح موضوع العولمة يبدو كأن مفهوم الهوية متعارض معه وأنه بالضرورة نقيض مباشر له بحيث أن التصور الوارد للعلاقة بينهما لا يعتبر وجود أحدهما إلا في غياب الآخر وأن قوة الأول تكمن في صعف الثاني. فإما هوية كاملة بكل خصائصها ومميزاتها وإما عولمة شاملة لا تقف عند حدود الخصوصيات الضيقة.

والحق أن التأكيد على الهوية والحرص على حمايتها والمحتفظة عليها- مع كل ما يصاحب ذلك من مخاوف وهواجس وقلق – ليست مجرد استجابة جامحة لمطالب ثانوية تطفو على سطح الواقع السياسي أو موقفا يتغذى من متطلبات قومية أو عرقية أو حتى دينية. ذلك أن مثل هذه العوامل، على أهميتها كمصدر تأثير قوي وعنيف، تعمل في اتجاهات مختلفة والآثار التي تخلفها في حياة أفراد والجماعات فضلا عن أنها غير متجانسة هي ظرفية. إن الاهتمام بعنصر الهوية هو استجابة لنداء أصيل ينبعث من أعماق شخصية الكائن البشري، يتناغم به باطنه مع ظاهره، ويلتقي ضمنه ماضيه وحاضره ومستقبله، وعلى أرضيته يباشر تحقيق مشاريع حياته، ومن أجلها يكدّ ويتعب ويقدم تضحياته. إن بهذا الاهتمام وحده يمنح عنوانا لوجوده. والعولمة الجارفة للصفات والخصائص الدقيقة للأفراد والجماعات تتحوّل من هذه الزاوية إلى مصدر تهديد مباشر للهوية، فتعطي للهواجس و المخاوف مبرراتها.

في هذه المداخلة محاولة متواضعة لطرح من جديد إشكالية العلاقة بين ظاهرة العولمة الشاملة والهوية الخاصة انطلاقا من أن استقرارا الهوية والذات المتميزة في ظل العولمة هو الذي يعطيها معنى لوجودها، وحاجة الأمة الملحة على تعزيز حضورها خارج حدود حضارتها ومعالمها الثقافية قصد تحقيق الاستفادة القصوى مما هو متوفر لغيرها من إمكانات و وسائل، في وقت لم تستكمل عملية العولمة تلوّنها الثقافي ولم يتم لها الاستقرار التام في الاتجاه الذي يخدم مصالح الأقوياء. كما أن في ظل هذه العلاقة يمكن للهوية أن تتألّق وتتطوّر أكثر فأكثر وتزداد قوة وصلابة لتقف متحدية فتحول العولمة بكل إيجابياتها منبرا لها.

---

[1]- محاضرة قُدمت في المؤتمر العلمي السادس" الهوية الاسلامية في عالم متغير" لكلية الشريعة جامعة جرش الأهلية. 2004/11/30 إلى 2004/12/02 ونشرت في 2004 ضمن " بحوث المؤتمر العلمي السادس" في مطابع الدستور التجارية ص ص. 527-541

مقدمة

إن إخضاع الشعوب سياسيا واقتصاديا يؤدي إلى محاولة إخضاعها ثقافيا. فالقوي الغالب إذا تمكّن من بسط نفوذه يرفض من الضعيف التابع أي شكل من أشكال المقاومة أو التمايز والاختلاف عنه، ولا يرضى منه سوى تقمص نمطه في العيش كتجسيد عملي حقيقي لهيبته واعتراف قسري بسلطانه وجبروته، وكدعامة لترسيخ تبعيته الاستهلاكية. غير أننا لا نستطيع أن نتحدث عن مشروع ثقافي شامل إلا في ظل سيادة قطبية مطلقة، وهو أمر لم يتحقق بعد. فالصراع السياسي والعسكري والاقتصادي على أشدّه بين الأطراف التي تريد أن تهيمن على مصالح العالم لتسييره بطريقتها وفي الاتجاه الذي يخدم مصالحها. في ظل هذا الصراع تقوم الكيانات والدول والأمم خاصة الضعيفة منها بمراجعة مواقعها وإدخال إصلاحات على أنظمتها ضمانا للبقاء. وكلّفت هذه المراجعات كثيرا من هذه الأنظمة والكيانات التخلّي أحيانا عن مبادئ وفلسفات ظلّت تدافع عنها قرابة القرن، واضطرت إلى الدخول في تكتلات مع أعدائها وخصومها التقليديين. ومهما اكتسبت من قوة نتيجة هذه الاصلاحات فالأمر لا يعدو أن يكون تصويبا لوضع أو تصحيحا لموقع.. أما الصراع الحقيقي فيتعدى مستوى الذات، إذ لم يعد يكفي أن تتمكّن الدولة من الوقوف بإمكاناتها الذاتية، ولكن تحتاج كذلك إلى تسخير هذه الامكانات الذاتية لتقف بها في وجه القوى المتنافسة التي تسعى لاستيعابها وإدماجها ضمن فلك نفوذها، مما يفرض عليها أن ترتقي إلى المستوى الذي يسمح لها بالدخول في المنافسة الشاملة ودخول معترك البقاء الاقتصادي والسياسي والعسكري والثقافي في قمته و أوجه، بحيث أنها حتى ولو عجزت عن بسط هيمنتها على غيرها فإنها تفق حجر عثرة في وجه محاولة هيمنة الآخرين عليها.

ومن بين بلدان العالم التي تسترعي بعض الاهتمام وتوجه الأنظار من كل ناحية، بلدان العالم العربي والاسلامي والتي تدخل في جملتها و بأولوية ضمن المناطق التي يطمح المشروع الغربي الهيمنة عليها والتحكم في مصالحها، نظرا لما تتوفّر عليه من موارد و ما تتمتع به من مواقع جغرافية استراتيجية وكذلك لكونها في أعماقها تحمل مشروع مجتمع فيه كل معاني التحدي، مشروع له من الخصائص والصفات ما يجعل من الصعب إخضاع هذه المناطق من العالم والتحكم في خيراتها. بل تظلّ هذه الأخيرة تهدد باقي مناطق العالم و تعرض البديل الفعلي لما هو موجود.

فماذا يكون مصير هذه المناطق من العالم، هل ستعمل على التموقع من جديد والاندماج في مشروع العولمة الزاحفة أم أنها ستختار التقوقع والانطواء على الذات حفاظا على كيانها الضعيف الذي لا يستطيع مقاومة التيار الجارف ؟ وما هي الوسائل التي ستعتمدها و السياسات التي ستنتهجها إذا هي أرادت لنفسها دورا رائدا في المجتمع البشري؟

الاختيارات أمام الأمة محدودة

إن وضع الأمة وظروفها الصعبة لا تترك أمامها اختيارات وبدائل كثيرة. وهي في كل الأحوال مضطرة أن تدفع ثمن اختيارها أيا كان.. هذا الثمن من المتوقع أن يتضاعف إذا تأخرت عن تسجيل الموقف المناسب والعمل بإحدى الاختيارات المرجحة .. وذلك لأن عجلة الحياة غير متوقفة والأحداث تتسارع والتطور مستمر ولا يعبأ بمن تخلّف عن الركب أو توقّف عن السير. ومما يؤكد أن التعامل مع ظاهرة العولمة بطريقة سلبية هو جهد ضائع و مبدد يرتدّ على الأمة بنتائجه العكسية:

1- حق اختيار المصير غير مكفول للضعفاء:

إن المنطلق السائد في واقع العلاقات الدولية لا يسمح بحق تقرير المصير بكل حرية لمن لا يملك الوسائل الرادعة التي تحفظ هيبة لاختياراته. وعندما نتناول العولمة في علاقتها بالدول الضعيفة لا نتحدث عن وجود عملية اختيار تمارس من قبلها. فالعولمة واقع يريد أن يفرض نفسه على الجميع لأن وجوده في الأصل اقترن بتحقيق مصالح الأقوياء. أما المجتمعات والشعوب التي تملك القدرة على تقرير مصيرها بيدها وتعيش تابعة لغيرها فهي تعيش الأحداث وتتأثر بها ولا تصنعها. والعولمة كما أسلفنا هو اختيار الأقوياء ليس بوسع الضعفاء مراجعته فضلا عن الوقوف في وجهه. وعموما فإن رغبة الضعيف لا يعبأ بها القويّ كما أن إرادته لا تكون في مستوى تغيير أي شيء من الواقع في صالحه.

2- الانطواء على الذات موت بطيء:

إن اعتماد الانطواء على الذات كخيار استراتيجي لا يسمح بالحفاظ على خصوصية المجتمع للاعتبارات التالية:

أ- إن هذا التقوقع من قبل المجتمع المتخلف هو احتضان للضعف أو العجز الذي لا يضمن استمرارية المجتمع وبقاءه. إنها بالعكس حماية للعناصر المساعدة على انهياره تماما كما يتم إمداد الميكروب أو تقوية الفيروس القاتل داخل الجسم.

ب- إن هـذا الاختيـار لا يساعـد المجتمـع علـى التحـرر مـن قيـود التبعيـة، خاصـة وأن تحقيـق الاكتفـاء الذاتـي لا تسمـح بـه الظـروف الراهنـة لهـذه المجمعـات ويبقى على المدى القريب حلم بعيد المنال.

ج- إن التقوقـع يمثّـل فـي أحسـن الأحـوال سياسـة دفاعيـة، و إذا افترضنـا أن هـذه المجتمعـات تمـلك وسائـل الدفـاع الناجعـة علـى مستـوى جبهـات الصـراع و المواجهـة المختلفـة (علميـة، اقتصاديـة، عسكريـة، و تربويـة ثقافيـة...) فإن السياسـة الدفاعية على المدى المتوسط ترتفع كلفتها نظرا لأن الصراع يدور على أراضيها.

د- إن عملية الانطواء إذا افترضنا أنها تسمح بالنمـو فإن هـذا الأخيـر لا يكون إلا بطيئا و بوتيرة لا يمكن أن تواكب تطورات المرحلة المعاصرة و متطلبات اللحاق بالركب.

ه- إن المجتمع الذي اختـار طريقـة الانـزواء يضطـر إلـى استهـلاك سمـوم خصومـه خاصـة الاعلامية منهـا. فالحرب النفسيـة والثقافيـة تعتمـد وسائل قويـة وعنيفـة. فبواسطة البرامج التي تنقلها اقمار الصناعية عبر محطات البث العديدة التي تحيط بالعالم العربي والاسلامي من كل جهة استطاع الأقوياء أن يوجهوا الرأي العام داخل هذه البلدان نفسها و أن يمرّروا كثيرا من أفكارهم وقناعاتهم، أن يعطوا وجاهة وصورة مشرقة للنموذج الغربي عامة والأمريكي خاصة[2]. فما دام العالم العربي والاسلامـي يوجـد في وضعيـة لا تسمح له بصناعة الحدث، فلا بد أن يستهلك القليل أو الكثير من هذه السموم المحضّرة له خصيصا، كما أن جهاز مناعته نتيجة الضغوط التي تمارس عليـه باستمرار لا بـد أن يخفـق في صد هذا النوع من الهجوم.

و- إن نفوذ المجتمع المنطـوي يتقلـص مجالـه مـع الزمـن، وهذا مـن شأنـه أن يدفـع بحالة الاستقرار الداخلي والتوازن الذاتي إلى التصدع. فالحرب النفسية الموجهة ضد العالم العربي و الاسلامي، والمشاكل الكثيرة التي تتخبط فيها هذه الشعوب، إذا لم تصاحبها توسعة في الأفق، فإن الانطلاقة الايجابية والواعدة سـوف تتأخـر والصعوبـات المكبلـة للحركـة ستزداد.

3- الانتعاش الداخلي مرهون بقوة الحضور على المستوى الدولي:

[2]- حسين خريف " عولمة العنف: أي دور للنظام الاعلامي العالمي" . مجلة العلوم الانسانية، العدد18، ديسمبر 2002 ، ص ص.49-62

فقد تختار الأمة الانطواء على ذاتها قصد إصلاح وضعها من الداخل ومراجعة خططها وجمع قواها للانطلاق من جديد، وهذا على مستوى واقع الأنظمة المتصارعة لا يمكن أن يتحقق بهذه البساطة. فعهد الجمود الذي عرفته الشعوب قد ولّى. إن المجتمعات في الماضي كانت وتيرة التطور بها بطيئة بحيث أن الانسان يغيب عنها نصف قرن من الزمن فإذا رجع يكاد لا يرى في حياة الأفراد و الجماعات جديدا يُذكر.

وإذا كان لا بد للمجتمع العربي والاسلامي أن يجري وبصفة دورية عملية التقويم قصد الوقوف على مواطن الضعف والتعرّف على عناصر القوة، فإنه، وبحكم الوضع الذي يوجد فيه وطبيعة الصراع القائم بين المجتمعات، لا يمكن أن تؤدي مثل هذه العمليات التقويمية الضرورية إلاّ كما تؤدي جماعة المسلمين صلاتها أيام الحرب وأثناء مواجهة العدو. فبقدر ما يسعى الأفراد لتعزيز علاقتهم بربهم والمحافظة على مواعد المناجاة وأداء الشعائر التعبدية في أوقاتها المحددة لأنهم في حاجة إلى قوتهم الايمانية الدافعة، فإنهم مضطرون، من ناحية أخرى، إلى تنظيم حراسة دائمة لمتابعة نشاط العدو ومختلف تحركاته حتى لا يقوم هذا الأخير بمباغتتهم في لحظات انشغالهم بأداء صلاتهم. إن المجتمع العربي والاسلامي ينبغي أن يكون قريبا من الأحداث ومما يجري في المحيط البشري حتى لا تفاجئه مواقف الآخرين و تضطره إلى تسجيل ردود أفعال مجهولة العواقب، مع عدم استبعاد إمكانية توسّع دائرة صدام الحضارات[3] والاستعداد لكل الاحتمالات حفاظا على الذات ومقوماتها. ثم إن انتعاش المجتمع داخليا يكون في الأصل ثمرة طبيعية لانتعاشه خارجيا. فالفرص المتاحة للفرد الأمريكي اليوم والامكانات التي هي في متناوله يحميها التواجد القوي للولايات المتحدة الأمريكية في المحيط العالمي. كما أن التدهور الذي يميز حياة الفرد في المجتمعات المتخلفة (منها بلدان العالم العربي والاسلامي) يصاحبه ضعف في حضور هذه المجتمعات على مستوى الصراع الدولي. ذلك أن بسط النفوذ و تعزيز هذا الحضور كثيرا ما يساهم في تغطية مظاهر عجز المجتمع داخليا. بالنسبة للمشروع التربوي والثقافي، إذا لم يكن صالحا ليسخر في تحسين وضع المجتمع، وهذا لا يتم إلاّ من خلال سياسة انفتاح إيجابية، فإنه يتحوّل بالضرورة إلى أداة تعمل في حلقة مفرغة لتكريس الواقع المرّ، لتصبح العملية التربوية لاحقا أداة لتنمية التخلف وتأكيد التبعية. بعبارة أخرى، فإن المشروع الثقافي يتعزز بدوره وسط الصراع ومن خلال الاحتكاك ومواجهة التحديات. والأمة في الوقت الراهن غائبة في ساحة الأحداث و إسهاماتها ذات الشأن محدودة إلى درجة رهيبة ومنحصرة في

[3]- مقري، ع " صدام الحضارات: محاولة فهم".

جهود أفراد، خاصة فيما يتعلق بالعلم والمعرفة[4]. لذلك يصبح أمام الأمة خيار واحد وهو الدخول في الصراع التنافسي وذلك حفاظا على تواجدها القوي أو أنها ستموت حضاريا وثقافيا.

4- الأمة أقوى في ظل العولمة:

إن زحف العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية سيأتي على كثير من الأنظمة والأمم حتى من بين تلك التي تملك في الظاهر قوة وتمارس بعض النفوذ فضلا عن الأمم الضعيفة والعاجزة. لأن البقاء الحضاري والثقافي يستدعي ثباتا في صراع دقيق بأهداف دقيقة و وسائل ذات خصائص ومواصفات متميزة. فلا يكفي امتلاك قوة عسكرية مثلا .. فالمشروع الثقافي الذي طالما دافع عنه الاتحاد السوفياتي البلد العملاق بات لا وجود له في الواقع. والحضارة الرومانية، في عهد "قسطنطين" لم تعفها هيمنتها العسكرية من اعتماد الديانة النصرانية كمصدر رئيسي في توجيه سلوك أفرادها رغم أن الكنيسة كانت في تلك الفترة من التاريخ تمثل الطرف المهزوم، هذا بدون إدخال الاعتبار الذي يرى أن اعتناق الرومان للنصرانية لا يعني أن الرومان تنصّروا ولكن الكنيسة هي التي "ترومنت". والتتار الذين هزموا المسلمين في بداية الأمر اضطروا فيما بعد إلى تبنّي مشروع المسلمين الثقافي في حياتهم. والانتشار الاسلامي في آسيا بواسطة التجار الذين حملوه كسلوك وكأخلاق وكمواقف كان له تأثير أكبر من الاسلام الذي انتقل إلى أوروبا بعد دخول جيوش المسلمين إلى هذه المناطق من العالم. ورغم دخول "نابليون" مصر منتصرا فإنه نقل شريعة المسلمين إلى أوروبا واعتبرها مصدره في صياغة ما عُرف بقانون " نابليون". بل الحاجة دفعت "سلفستر الثاني Sylvester II" وهو على رأس الفاتكان في الفترة ما بين 999م و1003م إلى المطالبة بتطبيق الشريعة الاسلامية وتنظيم حياة أفراد المجتمع على أساسها ليس كعقيدة وكدين وإنما كقانون.

في ظل هذه الصراعات القائمة التي يسعى فيها الأقوياء إلى إخضاع الضعفاء لنفوذهم، فإننا نرى أن الأمة العربية والاسلامية بخصائصها المتميزة تستطيع أن تقاوم تيار العولمة الجارف وتحوّله في اتجاه تصبح من خلاله من أكبر المستفيدين، غّا عرفت بطبيعة الحال كيف تتموقع وكيف ترتب أولوياتها وتنظم حياة أفرادها داخل هذا النسق المعاصر. ومن الخصائص التي نتصور أنها سوف تؤهّل هذه الأمة للاستفادة من التطورات المذهلة ولتسخير العولمة لصالحها والانطلاق في تعزيز مكانتها وتحقيق أهداف مشروعها وتجسيد

[4] - Zahlan, A.B. The Maghreb, Innovation and Globalization. pp. 134-161

قناعاتها وتمتص بالتالي بعضا من الاثار السلبية التي ترتبت عن انحطاط العالم الاسلامي[5] :

1- الأمة لها رسالة عالمية

إن القاسم المشترك بين شعوب العالم العربي والاسلامي هو الدين الاسلامي الذي تدين به و تعتز بحمل رسالته والذي هو مصدر أساسي تستمد الأمة منه قوتها من حيث أنه :

أ- يدعو معتنقيه إلى محاصرة مظاهر العجز والضعف في كل ميادين حياتهم وإلى امتلاك القوة لردع خصومهم و تحقيق عزة أفرادهم وشعوبهم.

ب- يعزز صلة متميزة بين الشعوب الاسلامية تفوق من حيث قوتها ومتانتها ما تمكّنت البشرية من تحقيقه من تقارب بين بعض المجتمعات الغربية بواسطة دخولها في تحالفات سياسية أو اقتصادية أو عسكرية [6]. هذه الأخيرة تكون في أحسن ظروفها وأحوالها ممثلة لأطر تلتقي فيها الأنظمة أو الهيئات أو الحكومات بعيدة عن واقع الأفراد وقناعاتهم. ففي نظري يعتبر تكتل الشعوب العربية والاسلامية أصدق تكتل لأنه يُبنى على أساس الدين الاسلامي الذي يعتبر الأخوة الايمانية أجل وأعظم من الأخوة في الدم. فمما لاشك فيه أن الشعوب الاسلامية جميعها تتألم من الوضع الذي يعيشه إخوانها في "فلسطين" في صراعهم مع اليهود.. و نفس الأحاسيس و المشاعر تسجلها بالنسبة لما يحدث لإخوانها في "بورما" وإخوانها في "كوسوفو" وإخوانها في "البوسنة" وإخوانها المضطهدين في "الصين" و" الهند " و" كاشمير"... وإذا توفرت الظروف الملائمة فإن هذه الأخوة وحدها تكون كفيلة برفع التحدي.

ج- يدعو إلى طهارة النفس والبدن والبيئة، ويوجّه الاستثمار في الوقاية. ذلك أن كل ما من شأنه أن يضرّ الاسنان يُحرم عليه تعاطيه.. زيادة على أن المحافظة على الصحة الفردية ليس أمرا اختياريا ولكنه واجب ديني تماما كالمحافظة على المال .. فمثل ما يكون الفرد مستخلفا في المال الذي هو مال الله فهو كذلك مستخلف في صحة العقل والبدن يحافظ عليها ويعمل على تسخيرها لخدمة نفسه وأمته والبشرية جمعاء.

د- يشجع على التعلم ويحتفظ للعلم بالمكانة المرموقة حتى يصبح الإلمام بكل العلوم الضرورية بالنسبة للمسلمين من الفروض الكفائية التي يأثم جميعهم إذا لم يتم استيعابها والتحكم فيها. كما يدعو بصراحة إلى تسخير نتائجه لتطوير واقع المجتمعات

---

[5]- أبو الحسن الندوي " ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين ؟"

[6]- مثل : السوق الأوروبية المشتركة، الحلف الأطلسي، دول عدم الانحياز، دول " الكومنوالث" ....الخ

البشرية. وليس من قبيل الصدفة أن نجد مشيّدي الحضارة المعاصرة استندوا على العلم كركيزة أساسية وسلك أسلاف الأمة الاسلامية بالأمس النهج نفسه[7]. إن الأمة العربية الاسلامية في حاجة إلى تجديد فكرها وتطوير ذاتها ومراجعة واقعها السياسي والاجتماعي والتربوي، ذلك أن الاندماج في حركة العولمة مع المحافظة في نفس الوقت على مقومات هويتها لن يكون، كما يقول البخاري حمانة، عن طريق استيراد الأدوات التكنولوجية، بل عن طريق الابداع الثقافي والتربوي القادر وحده، كما يضيف، على ربط مسارنا ومسيرتنا بمسار ومصير الأمم المتقدمة التي تتصدر اليوم العولمة بعيدا عن أي انزواء وعن أي ذوبان كذلك[8] .

ه- يدافع عن حرية الاعتقاد ويدعو إلى التسامح والتعاون .. فزيادة على صلة الايمان القوية التي تربط المسلمين فيما بينهم، فإن هناك علاقة متميزة تربط المسلمين بغيرهم من النصارى واليهود الذين يكفل لهم الدين الحنيف حقوقا كاملة ويطالبهم بواجبات مما يضمن اندماجهم ومشاركتهم في حياة المجتمع. وهذه الأرضية لا شك تساعد الأمة على التحرك وسط الناس من مختلف الشرائح والتوجّهات والثقافات والاحتكاك بمختلف الشعوب والقبائل وتبني مع الجميع علاقة إيجابية تسمح خاصة لغير المسلمين أن يروا حقيقة الاسلام على أرض الواقع القريب والمباشر، فلا يجدون فيه ما يزعج ويقلق و لا يرون فيه ما يؤذي ويضرّ فيغيرون نظرتهم تجاهه وبعد أن تزول الشكوك ومظاهر الريب التي طالما عمل واقع الخصوم والأصدقاء على ترسيخها في أذهان الناس فتأتي المرحلة التي يُقبل فيها هؤلاء على هذا الدين ليعتنقوه " وما ذلك على الله بعزيز "[9] .. وهو ما حدث في التاريخ مرات ومرات [10]، وما أكثر ما يعيد التاريخ نفسه خاصة إذا اجتمعت الأسباب وتهيّأت الظروف وتوفر المناخ المساعد. في المقابل نرى أن المجتمعات الغربية وهي في أوج قوتها لم تتمكن من استيعاب باقي الثقافات و وتدمجها في مجرى حياة شعوبها، فنجد أنها تضيق صدرا برؤية ما يخالف ثقافتها في واقع الأفراد والجماعات وتسجّل ردود أفعال عنيفة إزاءها. ففرنسا البلد النووي الذي ما زال يعتبر من الأطراف القوية التي تشارك في تقرير مصير الشعوب في العالم والتي تصنع أحداث هذا العالم، تضطر بحكم قناعاتها وفلسفة

[7] - Haidar Bammate (1976) « Muslim Contribution to Civilization »

[8]- البخاري حمانة " العولمة و التربية و مطلب الهوية" ، ص.34

[9]- سورة إبراهيم، الآية:22.

[10]- جوزيف رينو " الفتوحات الاسلامية في فرنسا و إيطاليا و سويسرا في القرو الثامن و التاسع و العاشر الميلادي

حياتها إلى إعلان حرب سياسية وإعلامية على البنت الصغيرة التي تعوّدت وضع خمار على رأسها حين تتوجه إلى المدرسة، حتى أن أحد البرلمانيين الرجال وضع على رأسه خمارا يستلفت به الأنظار. هذه البنت حاولت أن تمارس في البلد الديمقراطي الذي يرفع شعارات "الحرية، المساوات، الأخوة liberté, égalité, fraternité " حقها في حرية الاعتقاد وتعيش منسجمة مع نفسها مطمئنة. إلا أنها وجدت الواقع الفرنسي الذي يتظاهر بأنه لا يرفض لها حق الاندماج لكن الاندماج الذي يُطلب منها هو في الحقيقة انسلاخ عن شخصيتها والذوبان في شخصية الآخر.. وجدت الواقع يطاردها ويلفظها. ولعلني في هذا المستوى أعود مع محمد مسلم فأطرح نفس تساؤلاته حول رغبة العالم الغربي في عولمة القيم، هل يريد بذلك تحرير هذه الأخيرة أم التحرر منها، ولماذا يحرص على إبعاد الشعوب عن قيمها فهل يقوم بذلك من أجل تسهيل عملية استيعابها[11] ؟ هذه المنطلقات المعتمدة في المجتمعات الغربية تجعلها على استعداد دائم للدخول في صراع مع كل من يخالفها و لا ينسجم مع ثقافتها. وستظل لهذا السبب عاجزة عن بناء العلاقات الايجابية مع باقي الثقافات وعن مد الجسور تجاهها قصد استيعابها. وهي بهذه الضربات توقظ الآخر وتمدّه بالقوة المعنوية التي تبقى أساسية في عملية المقاومة الثقافية.

و- يعزز مكانة اللغة العربية. هذه الأخيرة نزل بها القرآن الكريم وهو الكتاب الذي تقدسه جميع الشعوب العربية والاسلامية و تعمل على نشر تعاليمه في أوساط أفرادها. فحتى مع بقاء اللغات الأخرى متداولة في الأمة العربية والاسلامية، فإن الجميع يحترم لغة القرآن ويسعى جاهدا لتعلّمها على الأقل بالحد الذي يسمح له أن يؤدي شعائره الدينية وكافة العبادات المطلوبة. من هنا يكون هذا العنصر مساهما بطريقة مباشرة في تقريب الشعوب العربية والاسلامية وتوثيق الصلة بينها.

ز- يخاطب البشرية قاطبة. فهذه الرسالة من أبرز خصائصها أنها رسالة الله إلى الانسانية كافة [12]. قال الله تعالى " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا "[13]. وقال سبحانه مخاطبا نبيّه " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"[14] . وقال جل شأنه " تبارك الذي نزّل

[11]- مسلم ، محمد " الهوية و العولمة" ص. 71.
[12]- الغزالي، محمد " عالمية الرسالة بين النظرية و التطبيق".
[13]- سورة الأعراف ، الآية: 158.
[14]- سورة الأنبياء، الآية: 106.

الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا."[15] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "... وكانَ النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كافة. "[16].

ح- يمثل رسالة الله الخاتمة. قال الله تعالى" وما كان محمد أبأ أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيئين."[17] فتصبح من مسؤولية هذه الأمة نشر تعاليمها بين شعوب الأرض معتمدة في ذلك الوسائل الصالحة التي تمكّنها من أداء هذه المهمة، مع التذكير أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وفي تقديري، فإن الوسائل والإمكانات التي توفرها العولمة تسمح لهذه الأمة أن تطوّق بها أزمتها وتتجاوز بها حالة الضعف لتأخذ موقعها الطبيعي بين الأمم والذي يشخّصه النص القرآني على هذا النحو "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا. "[18]

2- الأمة و موقعها الجغرافي

إن موقع الأمة بين الشعوب والقارات يعطيها مرونة في الحركة[19]. فهي قريبة من الجميع (خاصة من الجهات الفاعلة) ويتودد إليها الكل بسبب هذا الموقع. وإذا كانت معرّضة أكثر من غيرها للتأثر بسياسات واقتصاديات وثقافات الآخرين، فإن موقعها الجغرافي يسمح لها بدورها أن تترك بصماتها من خلال احتكاكها الطبيعي والمباشر بالشعوب الأخرى والثقافات المحيطة بها. ولعل الخوف من إمكانية تأثير العالم الاسلامي في غيره هو الذي دفع بالدول الأوروبية مثلا أن تعلن رفضها لانضمام تركيا البلد المسلم إلى السوق الأوروبية المشتركة. وظل هذا الرفض يتجدد لأزيد من عشرين سنة .. ولم تُدمج تركيا في الحلف الأطلسي إلا بقصد محاصرة إمكانياتها العسكرية وتطويقها وعدم السماح لها بتطويرها بالصورة التي تصبح طرفا مهددا وبعد أن اضطروها إلى عقد اتفاقيات تعاون عسكري مع إسرائيل.

فالاستفادة من تجارب الآخرين لا تكلفها مثل ما تكلف شعوبا أخرى نظرا لأنها كثيرا ما تتحقق في سياق طبيعي للعلاقة القائمة تاريخيا مع الآخرين. كذلك فإن الطبيعة

---

[15]- سورة الفرقا، الآية 1.

[16]- حديث رواه الشيخا البخاري (رقم 427) و مسلم.(رقم521).

[17]- سورة الأحزاب، الآية 40.

[18]- سورة البقرة ، الآية : 142.

[19]- تقع الأمة العربية الاسلامية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، المنطقة من العالم الأكثر نشاطا سياسيا و عسكريا واقتصاديا ، كما أ شعوبها تنتشر عبر القارات و تطل على المحيط الهندي و المحيط الأطلنطي و المحيط الهادئ و على بحر الفيليبين و بحر الصين.

الجغرافية المتنوعة التي تتوفر عليها تسمح لها بتقديم الخطى وتأخيرها ومراجعة مواقفها بما يتماشى مع تحقيق مصالحها وتكون دائما أمامها بدائل عديدة تستطيع أن تختار منها ما يضمن فائدتها وبأقل التكاليف.

3- الأمة وطاقتها البشرية

لا بد أن نذكر هنا أن فئة الشباب تمثل في بعض المجتمعات العربية أكثر من خمسين في المائة من العدد الاجمالي للسكان. ففي عام 1985م كان هناك 85 مليون طفل عربي تقل أعمارهم عن14 سنة، كما أن عدد سكان العالم العربي وحده تعدى 200 مليون نسمة مع نهاية 1988 بنسبة 57 % دون العشرين سنة [20].

هذه الامكانات البشرية إذا وجدت المناخ المناسب واجتمعت لها الظروف الايجابية التي تساعدها على تفجير الكامن من طاقاتها واستغلال قدراتها الهائلة فإنها تنبعث من جديد وتستطيع حينئذ أن تصنع الحياة من حولها. وبما أنها تنتسب إلى ثقافات عديدة وإلى بيئات متنوعة.. وأن العالم العربي والاسلامي ظل حقلا لتجارب دول الاستعمار طيلة عقود من الزمن، بحيث أن كل لأنظمة الاقتصادية جُرّبت بها وكل الأنظمة الاجتماعية والسياسية ظهرت بها وأبرز لغات العالم المتحضر تم الاحتكاك بها من إنجليزية وإسبانية وإيطالية وفرنسية... كل هذا الرصيد الهام يصبح بمثابة المادة الأولية التي بإمكان المجتمعات العربية والاسلامية تسخيرها للدخول في التجربة الرائدة التي- إذا لم تؤدي في البداية إلى قلب الموازين وتغيير مجرى الأحداث في العالم - فإنها من غير شك ستسمح لهذه الأمة أن تسجل حضورها القوي بين الشعوب والأمم وأن تشارك بطريقة مباشرة في صناعة الحدث وأن تفرض بعضا من شروطها التي تتلاءم ولو جزئيا مع المشروع الانساني الذي تصبو إليه.

4- الأمة و ثرواتها الطبيعية

إن العالم العربي والاسلامي يتربّع على مساحات شاسعة يمكن استغلالها في تطوير مختلف المشاريع التي تمسّ كافة الميادين بدون استثناء. فهي تُعرف بجبالها وسهولها وهضابها وصحرائها وبحارها وأوديتها وبمناخها المتنوع. ولديها من المساحات الصالحة للزراعة، دون الحديث عن الأراضي التي يمكن استصلاحها، زيادة على احتياطاتها المائية ما يسمح لها أن تحقق أمنها الغذائي وتفوق فيه الاكتفاء الذاتي لتدخل

[20]- إحصائيات قدمت في المؤتمر الذي عقد خلال شهر مارس 1988 في القاهرة حول القوى البشرية في الوطن العربي. مجلة الدعوة، العدد 1136 ، أبريل 1988، الرياض.

بمنتوجها الزراعي وثروتها الحيوانية السوق العالمية كمنافس قوي يعرض الجودة ويوفّر الكمية المطلوبة وبأقل ما يكلّف غيره. أما ما هو موجود في باطن أرضها من بترول وغاز ومختلف المعادن التي هي أساس كل صناعة فهو احتياطي كبير بوسع الأمة زيادة على تطوير التجارة في نسبة منه بما يسمح لها بالحصول على الأموال الضرورية لتمويل مختلف مشارعها، استغلال هذه المواد الخام في تطوير مختلف الصناعات وتسجيل حضورها القوي في السوق الدولية بمنتوجها الصناعي. يجب أن نلاحظ أن بعض الدول العربية والاسلامية كانت بالأمس القريب تصدر المنتوج الزراعي من حبوب وبقول جافة وخضر وفواكه إلى دول أوروبية هي اليوم تستورد ما تستهلكه (من غذاء) بنسبة تفوق 90%، لأنه بعد اكتشاف النفط في باطن أرضها استغنت عن خدمة الأرض ولم تعد تهتم بالزراعة كما كان الشأن في السابق .. وهي اليوم تبيع النفط وبالأموال التي تحصل عليها تشتري غذاءها..

5- الأمة و رصيدها التاريخي

إن تاريخ الأمة العربية والاسلامية تاريخ طويل وحافل بالأحداث في جميع ميادين وصور الحياة [21]. إلا أن هذه الصفحات من التاريخ الممتد تظل غير مستغلة من قبل الانسان المعاصر. فهو بمثابة الأرشيف الذي تستطيع هذه الأمة معالجته للاستفادة منه. بل بالوقوف على مختلف تجارب الانسان عبر هذا التاريخ الطويل يسهل عليها القيام بالدراسات الاستشرافية والتنبؤ بما يمكن أن يجري على يد هذا الانسان في مستقبل أيامه. وهي بذلك تسبق الأحداث وتتهيّأ لها قبل وقوعها فتضمن استقرارها السياسي والاقتصادي مما يسمح لها أن تواصل مسيرتها وتؤثر في غيرها.

فإذا عرفت الأمة العربية و الاسلامية كيف توظف هذه العناصر الخمسة التي سبق عرضها وكيف تستفيد منها فإنها تكون في وضعية تسمح لها باستيعاب العولمة وتسخيرها في الاتجاه الذي يحقق أهدافها. ومن الاحتياطات التي ينبغي أن تأخذها وهي تقوم بمحاولتها تلك :

1- عدم اعتماد سياسة الانتظار السلبي وتأخير عملية التحرك إلى الوقت الذي ترى نفسها قد أصبحت تمتلك وسائل القوة. فهي استراتيجية غير صالحة و مآلها الفشل. فبإمكانها أن تحدد لنفسها جبهات تتحرك فيها من الآن (استيعاب العلوم، حسن نقل المفيد من تجارب الآخرين في جميع ميادين الحياة...الخ)

[21]- مصطفى السباعي " من روائع حضارتنا".

2- عدم الدخول في مغامرات غير محسوبة العواقب كأن تدخل في مواجهات غير مفروضة عليها و لا تمتلك فيها وسيلة كفيلة بضمان النتائج الايجابية.

3- التقليل من عدد الخصوم ما أمكن ذلك والانفتاح على كل تجربة بغضّ النظر عن المجتمع الذي ظهرت فيه و الملابسات السياسية التي صاحبت ظهورها.

4- الدخول في التحالفات والتكتلات من منطلق تحقيق المصلحة الذاتية و لا ينبغي أن يأخذ الشكل والصورة التي سادت أيام الحرب الباردة. فالدفاع عن المبدأ لا بد أن تضمنه القدرة على البقاء والمقاومة، والشعارات المرفوعة أحيانا لا تقدم ولا تؤخر، وقد تحول دون تحقيق الأمة لمصلحة شعوبها أو جلب لها المنافع الضرورية. فالتحالف هو بالدرجة الأولى مصلحي قد لا يخدم المبدأ في الظاهر.

5- اعتماد الواقعية في التعامل مع الآخرين وتكييف بصورة تلقائية هذا التعامل مع ما يطرأ من تغيرات في الأوضاع والسياسات لدى بلدان العالم مع تسجيل المواقف المرنة القابلة للمراجعة في كل وقت وفي كل حين إذا دعت الحاجة إلى ذلك، بعيدا عن كل تعصب وعناد.

6- عدم تأخير المبادرة عن وقتها لأن عجلة الحياة تدور بسرعة وتسجيل الموقف إذا جاء في وقته المناسب قد يعطي للأمة دفعا كبيرا. فمثل هذه الفرص لا بد أن تُستغلّ على أكمل وجه لأنها قد لا تعود.

7- ضرورة التعرف على طبيعة الصراعات القائمة وطبيعة المصالح التي يسعى كل طرف لتحقيقها. مثل هذه الخبرة تسمح للأمة بفهم مواقف الآخرين واستغلال نقاط الضعف فيها لصالحه.

8- عدم تعزيز القوة الذاتية في الجانب العسكري وحده وضرورة تطويره في الاتجاه الذي يضمن الفاعلية ولا تثقل كاهل الأمة وتضطرها إلى توقيف مشاريعها التنموية في القطاعات الحيوية الأخرى.

9- بناء العنصر البشري الصالح. وبإيجاد هذا العنصر يضمن المجتمع العربي والاسلامي حضوره القوي بين المجتمعات كما حصل له في سالف عصوره المزدهرة والتي ما بدأت تعرف الضعف والعجز إلا حين ضعف الانسان وانشغلت الأنظمة عن إعداده وتأهيليه وأذلّته وأهانته. ثم إن الأمة بواسطة التربية وتعزيز مكانة العلم والايمان في حياة الفرد والجماعة تستطيع أن " تنمي الاعتزاز بالمرجعية

الثقافيــة. "[22] وهي المصدر الأساسي الذي تتغذى منها الهوية. وهذا يحتاج إلى وقفة تأمل وتقويم لوظيفة المؤسسة التربوية قصد تصحيح مسارها لنها في واقعها الحالي يبدو أنها لا تعمل في الاتجاه الذي يعزز من مكانة الأمة و يقـوّي مــن فـرص حضورهــا الفاعل بين الأمم [23].

الخاتمة

إن الأمة العربية والاسلامية لـن تستطيـع المحافظــة على خصائصهــا ومميزاتهــا بالانطواء على ذاتها، بل لن يُسمح لها أن تبقى بعيدة عن الأحداث، و لا تملك سوى اختيارا واحدا أن تدخل المعترك التنافسي مع أقوياء العالم وتتصارع من أجل أن تبقى كحضارة وكثقافة بوسائل الأقوياء. ولن يُكتب لهــا مــن جديد أن تؤدي دورهــا إلا في هذا المستــوى، لأنه كما هو بادي في الأفق سوف لن يوجد مكان لثقافة الضعفاء وتقاليد الصغار. وإذا كانت الأمة اليوم في وضعية لا تُحسد عليها .. إذ تعيش التفكك والانقسـام وتتخبـط في العجـز والتبعية، فإنها مع ذلك تحتفظ بعناصر كفيلة برفع التحدي و تحقيق " المعجزة " كثمــرة للتخطيط الصحيــح والعمــل الدؤوب و التوكــل على رب العــزة، " فإذا عزمت فتوكّل على الله " ، بدون انتظار حصول الانفراج بواسطة تعاطي أحلام اليقظة، فسنة الحيـاة ثابتـة وغالبـة " إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم" [24]، " ولن تجد لسنة الله تبديلا و لن تجد لسنة الله تحويلا."[25]

[22]- مسلم، م 3 الهوية و العولمة " ص.95

[23]- منصوري ،ع (1999) هل أصبحت وظيفة المدرسة طمس المواهب؟، مجلة التربية، قطر، العدد 128، ص.ص. 130-136

[24]- سور الرعد ، الآية: 12.

[25]- سورة فاطر، الآيتا: 43 و44.

قائمة المراجع

1-السباعي، مصطفى.(1980) من روائع حضارتنا.دار الصديقية للنشر، 1400هـ الجزائر.

2-الغزالي، محمد (1985). عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق. دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر.

3- رينو،ج. الفتوحات الاسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي. تعريب و تعليق الحواشي وتقديم : اسماعيل العربي، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، الطبعة الأولى1984 .

4-مجلة الدعوة ، العدد1136، أبريل 1988، الرياض.

5-الندوي، أبو الحسن (1987). ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ مكتبة رحاب، الطبعة العاشرة.

6-خريف، حسين (2002). عولمة العنف: أي دور للنظام الاعلامي العالمي؟ مجلة العلوم الانسانية، العدد 18، شهر ديسمبر، جامعة قسنطينة، الجزائر.

7-مسلم ، محمد (2002). الهوية و العولمة. دار الغرب للنشر والتوزيع. وهران، الجزائر.

8-البخاري، حمانة (2002).العولمة والتربية ومطلب الهوية. نشر في " التربية والتعليم في الوطن العربي و مواجهة التحديات" ، الجزء الأول، دار الغرب للنشر والتوزيع.

9-مقري، ع, (2003). صدام الحضارات: محاولة الفهم. دار الخلدونية.

10- منصوري ، ع (1999). هل أصبحت وظيفة المدرسة طمس المواهب؟ مجلة التربية، العدد 128، قطر ، شهر مارس .

11- Bammate, H. (1976). Muslim Contribution to Civilization. American Trust Publications. Indiapolis, Indiana.

12- Zahlan, A.B.(1998). The Maghreb, Innovation and Globalization. Etudes Maghrébines, No:1, Juillet. Revue éditée par lr réseau maghrébin pour l'intégration de la science et la technologie dans le développement.

العولمة منبر الهوية / منصوري عبد الحق (جامعة وهران)

Globalization as the identity platform

Mansouri Abdelhak (University of Oran)

Abstract:. The concern for identity is a response to an authentic call that emanates from the depths of the human being, because it is the framework that puts his interior in harmony with his exterior, and connects his present to his past and to his future , and on its basis he embarks on the realization of his life projects. This interest alone gives an eminent title to his existence. Globalization, on the other hand, outwardly marginalizes the individuals, groups, organizations, and entities' distinctive characteristics and fuses them into a whole that has no clear context so that it turns into a source of direct threat to the identity. But when we reflect more deeply on the nature of the relationship between identity and globalization, we notice, that the jostling between them also positively affects both., as identity becomes more solid, stable, and entrenched, making it more evident and present, and the circle of globalization widens, after refining its sweeping current as a reaction to the pressing resistance forces, which drives it to absorb additional varieties of images of diversity, disparity and difference displayed by strong and penetrating idiosyncrasies, bearing in mind that weak identities are destined to melt and disappear. Therefore, it is no longer sufficient for states and nations to be preoccupied with their internal stability. Rather, they need to harness their own capabilities to stand in the face of competing forces that seek to absorb and integrate them into their sphere of influence, Which requires them to rise to the level that allows them to enter into competition with the world's top leaders and record its strong presence in the cultural, economic, political and military arenas.. Even if they are not able to extend their dominance over others, they remain at least a stumbling block in the face of others' attempts to control them.

الملخص: إن الاهتمام بالهوية هو استجابة لنداء أصيل ينبع من أعماق شخصية الإنسان، فهو الاطار الذي يجعل داخله منسجمًا مع خارجه، ويربط حاضره بماضيه ومستقبله، وعلى أساسه ينطلق في تحقيق مشاريع حياته. هذا الاهتمام وحده يعطي عنوانا لوجوده. العولمة في المقابل تقوم ظاهريا بتهميش الصفات والخصائص المميزة للأفراد والجماعات والمنظمات والكيانات، وتدمجها في كلٍ ليس له سياق واضح ولا هوية، بحيث تتحول إلى مصدر تهديد مباشر للهوية الفعلية أو بالأحرى القائمة. لكن عندما نتأمل بعمق أكبر في طبيعة العلاقة التي تربط بين الهوية والعولمة نلاحظ مع ذلك أن التدافع بينهما ينعكس كذلك إيجابيا على كليهما فتزداد الهوية صلابة وثباتا ورسوخا فتكون أكثر تجليا وحضورا، كما تتسع دائرة العولمة، بعد تهذيب تيارها الجارف كرد فعل تجاه القوى المقاومة الضاغطة الخاصة بما يدفعها إلى استيعاب أصنافا إضافية من صور التنوّع والتباين والاختلاف التي تستعرضها الخصوصيات، علما بأن مآل الهويات الضعيفة الذوبان والانصهار والتلاشي. لذلك لم يعد كافياً انشغال الدول والأمم باستقرارها الداخلي، بل تحتاج إلى تسخير إمكاناتها الذاتية للوقوف في وجه القوى المنافسة التي تسعى لاستيعابها ودمجها في دائرة نفوذها، الأمر الذي يتطلب منها الارتقاء إلى مستوى يسمح لها بالدخول في منافسة مع كبار العالم وتسجيل حضورها القوي في الساحات الثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. وحتى لو لم تكن قادرة على بسط هيمنتها على غيرها تظل على الأقل حجر عثرة في وجه محاولة الآخرين إخضاعها و السيطرة على مقدراتها.